دير الزور
فى زمن الخلفاء الراشدين

للشيخ محمد سعيد العرفي

بعد حروب طويلة فى زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، استولى المسلمون على تلك البلاد فى سنة ٢٧ هـ وأذلوا من فيها من عشائر ربيعة . تغلب وبكر وغيرها ، وكانت فرقيسية هى المعقل لمن تحدثه نفسه بالشر منهم ، لوقوعها فى رأس زاوية خطاها الفرات والخابور وهى شرقي دير الزور نحو عشرة أميال . فانتقضت عدة مرات ، فامر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بهدم قلعتها التى لم يبق الآن منها الا أثر بسيط . وتسمى اليوم «البصيرة» بالتصغير

وأما فى زمن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد حصلت فيها حروب صغيرة سنة ٣٧ هـ تلك الحروب التى سفكت فيها دماء عشرات ألوف من المسلمين ، وكشفت عن قلوب حنقة على الاسلام ، وجدتها فرصة انفجر فيها بركان غيظها على الدين الحنيفى ، وابتدأ النزاع يستفحل منذ ذلك الزمن الى عصرنا هذا . والله أعلم بما بعده ، بحيث لم ير الاسلام فى هذه القرون الأربعة عشر سعادة وطمأنينة الا أدواراً متقطعة ، غالبها ممزوج بآلام تترى وويلات تتعاقب

دير الزور في زمن بنى أمية

عقب قتل الحسين رضى الله عنه فى موقع الطف من أرض كربلاء ١٠ محرم سنة ٦٠ هـ ندم الموالون له على تقاعسهم عن نصرته ، ورأوا أن هذا ذنب لايغتفر الا بتجريد الحسام فى وجه الأمويين . حتى يأخذوا الثار أو يموتوا ، وإن التوبة هى أحد هذين الأمرين ، لذلك سمى هؤلاء (التوابين) وبدأوا يجمعون قواهم تحت لواء سليمان بن صرد الخزاعى الصحابى الجليل رضى الله عنه . وبايعوه على ذلك وما برح أمرهم بازدياد ، حتى اذا حلت سنة ٦٥ هـ أعلنوا الحرب ، وخرجوا من الكوفة باربعة آلاف على طريق الجزيرة ، حتى وصلوا رأس العين ، وهناك التقوا بالجيوش الأموية تحت قيادة عبيد الله بن زياد ، وبعد حروب طويلة كانت سجالا ، انتهت فى جمادى الأولى من السنة المذكورة بقتل سليمان سليمان رضى الله واكثر أعوانه ومعظم جيشه

ثم تقدمت الجيوش الاموية نحو سوار العراق الذى كان شعلة نار تتأجج ، ورأى المختار الثقفى هذه الحال فرصة لما يريده من الملك وادعاء النبوة ، تحت ستار الطلب بثار الحسين رضى الله عنه ، فجهز جيوشه بعد ذلك ، والتقى بعبيدالله بن زياد فى السهول التى بين الموصل ونصيبين ، فقتل عبيد الله بن زياد واستفحل أمر المختار حتى قتله مصعب بن الزبير . ثم أن مصعباً قتل أيضاً ، وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفى الى العراق وبقى أمر الجزيرة ووادى الفرات يدور بين هدنة ، واختلال حتى كان آخر خلفاء الامويين مروان الجعدى أميرها وفيها أعلن خلافته التى انتهت سنة ١٣٢ وبها انتهت الدولة الاموية

دير الزور في زمن الدولة العباسية

كان هارون الرشيد الخليفة الخامس للعباسيين ، قدا ختار الرقة مصيفاً له ، ولا زال باب بلاطه موجوداً شرقي المدينة متصلا بها ، هدم الافرنسيون قسما منه بمدافعهم أثناء حروبهم مع المرحوم الامير حاكم بن مهيد شيخ عشيرة الفدعان سنة ١٣٣٩ هـ وكانت الرقة للرشيد العاصمة الثانية بعد بغداد ، ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون منبعاً للقلاقل ، لأن ما فيها من الخيرات الكثيرة يدعو الى سهولة القيام بالثورات واعلان العصيان على الحكام لعدم الاحتياج الى زاد أوماء ، بسبب كثرة الأشجار المثمرة من جميع الأنواع . ولكن لم يبق منها الا شجر البطم الذى يصلح ثمره غذاء يخزن ويؤكل فى الصيف والشتاء ويستخرجون منه زيتاً يأتدمون به . لذلك نجد فيها الثورات متتابعة ، وكتب التاريخ ملأى بها : فمن ذلك فى سنة ١٦٣ هـ ثار عبد السلام بن هاشم اليشكرى فى الجزيرة على المهدى العباسى ، وحاربه حتى اذا غرته قوته ، ورحل الى قنسرين بالقرب من حلب ، قتله هناك شبيب بن واج أحد قواد المهدى .

وفى سنة ١٧١ هـ خرج الضحاك على الرشيد فى الجزيرة ، ولكنه قتل فى دروين من ديار ربيعة ، وقد انقلع النهر الذى يجرى عليها ، وسمى باسمها (نهر دروين) وهو شعبة من الخابور يصب فى الفرات تجاه البوكمال ، ولم يبق الا آثاره حتى صار من الأمثال «خراب دروين

وفى سنة ١٧٦ هـ خرج على الرشيد أيضا الفضل . ولكن لم يلبث الا يسيراً حتى قتل .

وفى سنة ١٧٨ هـ خرج أيضاً الوليد بن طريف التغلبي ، وفتك فى ابراهيم بن خازم بن خزيمة والى نصيبين . واستولى على الجزيرة وأرض السواد ، ولا زال أمره فى سعة وملكه فى

انتشار ونفوذه فى ازدياد ، حتى اذا هل شهر رمضان سنة ١٧٩ هـ أرسل الرشيد أحد قواده المشهورين يزيد بن مزيد الشيبانى فما زال يجالده ويحاربه ، حتى خشى الرشيد أن يتفقا عليه لان كلاهما من ربيعة . ولكن قتل الوليد ، ولذلك فان الرشيد لما بلغه خبر موت الوليد اعتمر من ساعته شكراً لله تعالى ، وتوجه من حينه الى مكة المكرمة لاداء العمرة ، وقد تألم لقتله بنوا ربيعة ، حتى قال الشاعر معرباً عن تأثرهم من هذه الحرب بقوله :

وائل بعضها يقتل بعضاً لا يفل الحديد الا الحديدا

ورثته أخته ليلى بالقصيدة المشهورة التى أولها

بتل تباثاً رسم قبر كأنه على علم فوق الجبال منيف

ومنها البيتين المشهورين وهما :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنى وسيوف

ولا زال قبره على شاطىء الخابور بالقرب من كوكب . وقد اعتبرته العامة مزاراً يتبركون به ويقدمون اليه النذور ، كما يقع فى مصر . فان المماليك قد دفن كثير منهم فى المساجد أو فوق قبره قبة ، فيظنها الناس مزاراً للتبرك ، فيقدسونهم باعتبارهم أتقياء برره

ثم مشى على أثر الوليد خراشة الشيبانى ، فاعلن عصيانه على الرشيد فى الجزيرة سنة ١٨٠ هـ ولكن لم يلبث الا يسيراً حتى قتل .

وأما مالك بن طوق فقد بنى الرحبة . وهى قلعة كانت على شاطىء الفرات وبعدت الآن عنها مسافة تقرب من ثلاثة أميال ، بنيت فيها مدينة تدعى الآن الميادين — على اعتبار الميل أربعة آلاف خطوة فى كل تقدير أوردناه — وعصى فيها سنين عديدة ، وفى آخر الامر غلب وحصل له العفو

ولما أعلنت الحرب بين الامين والمأمون ابنى هارون الرشيد ، لم يجد الخليفة الامين من يلبى نداءه باخلاص ، الا سكان دير الزور ، وكان نصر بن سيار العقيلى هو المعلن لنصرته بعد ما قتل ، سنة ١٩٨ إذ رأى نصر هذا أن دولة الامين أعجمية فأعلن عصيانه عليها حتى أنه لما كلف بأن يبايع أحداً من خصوم العباسيين أبى ، وقال إن هواى فى العباسيين وانما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون العجم ، وأقام فى الرقة وفى حران وبقى سنين . ثم

ضعف شأنه ، لأن أنصاره تخلوا عنه بسبب رأيه الذى أعلنه. وكان أيضاً سبب عفو المأمون عنه

ولا زالت على هذا الحال حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ وفيها محا هلاكو الدولة العباسية من العراق ، وأخرب تلك البلاد ، ثم عقبه تيمورلنك سنة ٨٠٤ فأكمل هدم مابقى من الآثار وتمزيق الانقاض ، ولم تبق الا الاطلال فلا حول ولا قوة الا بالله .

بعد واقعتى هلاكو وتيمورلنك ، هجر أهل المدن المتخربة الصحارى واستبدلوا البنيان بالخيام وبيوت الشعر ، حتى أصبحوا الاكثرية المطلقة ، وعاشت بعد ذلك فى عزلة عن العالم قروناً طويلة ، فوضى بلا حكومة ، وإنما يحكم البلاد رؤساء القبائل ، ويسمى ذلك العهد بزمن «الفلت» أى لعدم خضوعهم للدولة العثمانية ، وانفلاتهم من قيودها الثقيلة ، وكانوا فى غنى عن العالم كله ، بما تنتجه الارض من الاغذية وزراعة القطن ، وتقوم به البلاد من المصنوعات والاعمال التى تكفيهم وتغنيهم عن جلب حوائجهم من قطر آخر . حتى انه كان فى أغلب بيوت مدينة دير الزور والميادين والرقة مصانع نسج الصوف والقطن بحيث تكفى الحضريين والبدو المحيطين بهم ، فلم يحتاجوا الى غيرهم مدة الفوضى كلها . وهذا هو الذى جعلهم يستطيعون الاحتفاظ بحياتهم الاستقلالية ، ويمدون لها المدد المادية ، على حسب وسعهم وما يكفل لهم تأمين ما يقصدونه ، فانك تجد المدينة القديمة متراصة على بعضها ، وبعبارة أفصح مجموعة حجرات فوق كل حجرة غرفة أو سهوة — أى جزء غرفة — والشارع لايزيد على ثلاثة أذرع ، ليسهل تعاونهم مع بعضهم ، فقد كان الفلاح يحرث أو يحصد وهو متنكب بندقيته متقلد حسامه ، ومثله العامل ، خشية من الطوارئ ، فقد كانوا مزارعين أرباب صنايع . محاربين فى آن واحد ، ولذلك فان هذه البلاد كلما مر بها طامع آب خائباً فقد غزتها الجيوش العثمانية مرات ، ولم توفق لاخضاعها ، فتركتها ، لوقوع البلاد فى غابات كثيرة يصعب على الجيش النظامى أو الاجنبى أن ينازلهم ، لانهم أعرف منه بالمواقع الحربية والطرق المفيدة والمسببة للظفر .

وبعد استفحال أمر الوهابيين ، واستيلائهم المرة الاولى على الحجاز سنة ١٢٢٠ هـ أرادوا أيضاً أن يحتلوا دير الزور بقيادة أحد شيوخهم المسمى «القعيط» فنزل بقرب البلد كضيف أولا ثم هجم ليلا بجنوده يريد احتلال مدينة دير الزور قاعدة البلاد بالاستيلاء على قصر الشباب المبنى خارج المدينة — هو اليوم شرقي دار الحكومة متصل بها — ومنه

يدخلونها من باب الجسر ، الذى هو الباب الشرقي . لأن للمدينة بابان باب الجسر عند الجامع العمرى ، ويقابله فى الغرب باب الهواء عند العوير . فقتل القائد مع أكثر جيشه ولم ينج الا النادر .

وفى غضون سنة ١٢٥٠ وصل اليها أحد قواد ابراهيم باشا ابن محمد على المسمى «قفطان» فبقى أشهراً كضيف ثم خرج منها .

وفى سنة ١٢٨٠هـ مر السردار عمر باشا ، والى بغداد ، وكانت مدينة دير الزور منقسمة على نفسها ، وقواها منهوكة ، من حروبها مع العشائر ، مع استمرار النزاع ، وكان بعض المفسدين من الأسر التى لا تزال مثالا للفساد والاضرار ، أشعل نار الفتنة بحركات جنونية ، حيث جمع من الأهليين طحينا كضيافة للعساكر التركية ، فباعه منهم بعد أن مزجه بالجص فحصلت المصادمة مع الجيوش العثمانية ، التى غلبت فى أول الأمر حيث أن الأهليين متمرنون على السلاح أكثر من الجيش التركى ، فتلفت منهم مئات ، ولم يقتل من الأهليين شخص واحد ولكن أعانه بعض الزعماء ، وعلموه مداخل البلدة ومواطن ضعفها ، فضرب بمدافعه مأذنة الجامع الكبير فقلع رأسها ، ولا يزال مشاهداً حتى الآن ثم دخل الجيش من باب الهواء لأنه كان خلواً عن المحاربين ، حيث كانت الجبهة فى الوسط فأمر السردار باباحة أعراض المدينة ودماء أهلها وأموالهم ، شأن الاتراك عندما يدخلون بلدة عنوة . فبقيت مدة كذلك . ثم جاءت العشائر ونهبت المدينة ، حتى صارت قاعاً صفصفاً ، فكانت نكبة عظيمة جداً . ثم أناب عنه قائمقاماً عسكرياً . وجعلها مربوطة الى بغداد ، بعد أن أخذ مائتى شاب استخدمهم جنوداً فى السليمانية أحدى المدن المربوطة فى ولاية الموصل ، وذلك عوضاً عما تلف من جنوده .

محمد سعيد العرفى

كن عظيما

قال بعضهم : اكثر الناس يتعلمون لغتين لا يحسنون الكلام أو الكتابة باحداهما . ويدرسون فرعين من فروع العلم لا يتقنونهما ، ويزاولون فنين دون أن يبلغوا حد الاجادة فى أحدهما . تلك علة التقلب وهو ذلك السد المنيع الحائل بين الحقارة والعظمة . لقد مضى زمان كان على العالم فيه أن يعرف قليلا من كل شىء . وجاء زمن أصبح [illegible] فى كل شىء إلا ما تتخصص فيه محموداً . ولا يكون الانسان عظيما إلا إذا أجاد فى فنه

الموسيقية العمياء

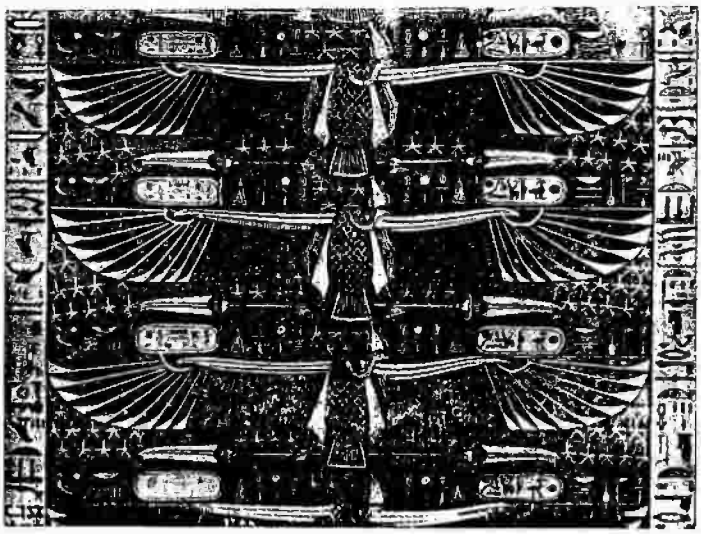

أحد النقوش المصرية

التى تزين بها السقوف . وجدت فى قبر سبتاح